عيسى عليه السلام

عناصر الموضوع

المجلد الخامس والعشرون

التعريف بعيسى عليه السلام

أولًا: اسمه ونسبه:

ذكر الله تعالى اسمه ونسبه في كتابه العزيز، فسماه المسيح عيسى، ونسبه إلى أمه مريم، ولم يزد على ذلك: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران: ٤٥].

فهو إذًا: المسيح عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله.

وعيسى: اسم علم، وهو اسم أعجمي غير منصرف، وهو عبراني أو سرياني(١).

ثانيًا: لقبه:

تسميته بالمسيح: التسمية بـ (المسيح) في حق عيسى عليه السلام على سبيل المدح، قالوا: وهو لقب من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق.

أما سبب تسميته بالمسيح:

قيل: أصله مشيحا بالعبرانية، ومعناه: المبارك.

وقيل: سمي عيسى عليه السلام مسيحًا؛ لأنه ما كان يمسح بيده ذا عاهة إلا برىء من مرضه.

وقيل: سمي مسيحًا؛ لأنه كان يمسح الأرض، أي: يقطعها.

وقيل: كان مسيحًا؛ لأنه كان يمسح رأس اليتامى لله تعالى.

وقيل: لأنه مسح من الأوزار والآثام.

وقيل: سمي مسيحًا؛ لأنه لم يكن في قدمه خمص(٢)، فكان ممسوح القدمين.

وقيل: سمي مسيحًا؛ لأنه كان ممسوحًا بدهن طاهر مبارك يمسح به الأنبياء ولا يمسح به غيرهم، ثم قالوا وهذا الدهن يجوز أن يكون الله تعالى جعله علامة حتى تعرف الملائكة أن كل من مسح به وقت الولادة فإنه يكون نبيًا.

---

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٣٥٣، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٤٠، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ١٥٢، تاج العروس ١٦/ ٢٩٧، الكليات، الكفوي ١/ ٦٦٢.

(٢) الأخمص باطن القدم وما رق من أسفلها وتجافى عن الأرض وقيل الأخمص خصر القدم، والأخمص ما دخل من باطن القدم فلم يصب الأرض، فالأخمص من القدم الموضع الذي لا يلصق بالأرض منها عند الوطء.
انظر: النهاية، ابن الأثير ٢/ ٨٠، لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣٠.

وقيل: سمي مسيحًا؛ لأنه مسحه جبريل عليه السلام بجناحه وقت ولادته؛ ليكون ذلك صونًا له عن مس الشيطان[1].

ولما كانت العادة أن ينسب الأولاد إلى آبائهم، نسب عيسى عليه السلام إلى أمه ليكون ذلك دليلًا على براءتها، وأنه لا أب له في الحقيقة.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٩٠، تفسير السمعاني ١/ ٣١٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٤٤، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٤٨٠.

صفات عيسى عليه السلام

عيسى عليه السلام نبي الله ورسوله، فهو إذًا متصف بكل الصفات التي تؤهله لهذه المكانة العالية والمقام الرفيع.

أولًا: صفاته الخُلُقية:

- **أنه معاذٌ من الشيطان الرجيم:** ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ آل عمران: ٣٦، **وقد مر بنا قوله صلى الله عليه وسلم: (ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخًا من مس الشيطان، غير مريم وابنها) ثم يقول أبو هريرة:** ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦][1].
- **الوجاهة:** ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥]. **والوجيه: ذو الوجاهة، وهي: القوة والمنعة، ووجاهته في الدنيا النبوة، وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة**[2].
- **القرب من الله تعالى:** ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥].
- **أنه من الصالحين:** ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٦].
- **كلمة الله وروح منه:** ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]. **قال الشيخ المراغي رحمه الله: «وقد خص المسيح لإطلاق الكلمة عليه وإن كان كل شيء قد خلق بكلمة التكوين؛ لأنه لما فقد في تكوينه وعلوق أمه به ما جعله الله سببًا للعلوق في العادة، وهو تلقيح ماء الرجل لما في الرحم من البويضات التي يتكون منها الجنين أضيف إلى الله، وأطلقت الكلمة على هذا المكون إيذانا بذلك، بخلاف الأشياء الأخرى، فإنها تنسب في العرف إلى الأسباب العادية»**[3].
- **حكيمٌ:** ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠]، ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب: (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم)، رقم ٤٥٤٦، ٦/ ٣٤.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٩١.
(٣) تفسير المراغي ٣/ ١٥٠.

﴿وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ [الزخرف: ٦٣].

❁ **عنده علم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل:** ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠]. ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ [الزخرف: ٦٣].

❁ **موحد مخلص لله تعالى:** ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦]. ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء: ١٧٢]. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

❁ **مجاب الدعوة:** ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١٤-١١٥].

❁ **اللين والرحمة: يدل عليه قوله:** ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[المائدة:١١٨].

❁ **مبارك:** ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣١].

❁ **بار بوالدته:** ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: ٣٢].

ثانيًا: صفاته الخَلْقية:

كان عيسى عليه السلام مربوع القامة، ليس بالطويل ولا بالقصير(١)، أحمر اللون، آدم، جعد، سبط الرأس.

فعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(ورأيت عيسى رجلًا مربوعًا، مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس)**(٢).

(١) انظر: أشراط الساعة ص١٥١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين، ٤/ ١١٦، رقم ٣٢٣٩.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(رأيت عيسى وموسى وإبراهيم، فأما عيسى فأحمر، جعد، عريض الصدر)**[1].

وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(وأراني الليلة عند الكعبة في المنام، فإذا رجل آدم، كأحسن ما يرى من أدم الرجال، تضرب لمته بين منكبيه، رجل الشعر، يقطر رأسه ماء، واضعًا يديه على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا المسيح ابن مريم)**[2].

أما قوله: (أحمر)، و(آدم) على الروايتين: الأحمر عند العرب: الشديد البياض مع الحمرة، والآدم: الأسمر، ويمكن الجمع بين الوصفين بأنه أحمر لونه بسبب كالتعب وهو في الأصل أسمر[3].

وقوله: (جعد)، (سبط الرأس): فصفة الجعودة هنا في الجسم لا في الشعر؛ لأنه وصف الشعر بالسبط، والسبط من الشعر المنبسط المسترسل، وهو ضد الجعد[4]، وأما الجعد في الجسم فهو المجتمع الشديد[5].

وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين عروة بن مسعود رضي الله عنه، فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(عرض علي الأنبياء، فإذا موسى ضرب من الرجال، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام، فإذا أقرب من رأيت به شبهًا عروة بن مسعود)**[6].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب (واذكر في الكتاب مريم)، ٤/ ١٦٦، رقم ٣٤٣٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (واذكر في الكتاب مريم)، ٤/ ١٦٦، رقم ٣٤٤٠.
(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٤٨٦.
(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٣٣٤.
(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ١/ ٢٧٥، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٢٢.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، ١/ ١٥١، رقم ١٦٥.

ذكر عيسى عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر عيسى عليه السلام في القرآن الكريم (٢٥) مرة، في (١١) سورة.
وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
آل عمران	٤٥-٦٢
النساء	١٥٧-١٥٩، ١٧١-١٧٣
المائدة	٤٦، ١١٠-١١٨
مريم	٢٢-٣٤
الزخرف	٦٣-٦٥
الصف	٦، ١٤

التعريف بمريم عليها السلام

أولًا: اسمها ونسبها:

ورد في القرآن انتساب مريم والدة عيسى إلى عمران عليهم السلام: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ [التحريم: ١٢].

أبوها: هو عمران الرجل العابد الطاهر وهو من رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم(١)، يصل نسبه إلى النبي الكريم داود عليه السلام.

وأمها: هي حنة العابدة الطاهرة التي كرمها الله فأجاب دعوتها ورزقها بمريم.

وزوج أختها أو زوج خالتها «أشياع» هو زكريا النبي الكريم عليهم السلام جميعًا.

فلا ريب حينئذ أن يكون هذا البيت المبارك بيت آل عمران من البيوت القليلة المباركة التي حظيت بتشريف الله تعالى لها بقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ - ٣٤].

ثانيًا: الحمل بمريم عليها السلام:

أشار الله تعالى لقصة حمل أم مريم بها ووضعها في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٦].

ثالثًا: الوضع والوفاء بالنذر:

لما حملت أم مريم عليهما السلام حررت ما في بطنها، وكانت لم تعلم بعد ما هو ذكر أم أنثى، والمحرر عندهم لا يعمل للدنيا ولا يتزوج ويتفرغ لعمل الآخرة ويعبد الله، فيجعل للمعبد يقوم بخدمته ولا يخرج منه(٢)، ولم يكن يحرر إلا الغلمان.

ثم مات عمران وحنة حامل بمريم، فلما وضعت إذ هي أنثى، فقالت عند ذلك: ﴿رَبِّ إِنِّى

(١) انظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ٢٢٨.

(٢) وقيل: لا يبرح منه حتى يبلغ الحلم، فإذا بلغ خير، فإن أحب أن يقيم فيه أقام، وإن أحب أن يذهب ذهب حيث شاء.
انظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ٢٢٨.

وَضَعَتْهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٦].

و(مريم) معناه: العابدة[١].

وقد استجاب الله دعاء أم مريم هذا كما أجابها حين اشتهت الحمل، فأعاذها مريم وابنها من الشيطان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخًا من مس الشيطان، غير مريم وابنها) ثم يقول أبو هريرة: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦][٢].

رابعًا: مكانة مريم عليها السلام وفضلها:

لمريم عليها السلام مكانة كبيرة تمتاز بها عن سائر نساء العالمين، فقد وضع الله مريم بين أهل الصلاح والنقاء، فترعرعت ونشأت في جو إيماني طاهر عفيف، وقد بين الله تعالى فضلها ومكانتها في مواطن من كتابه، كما جاء ذلك على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن دلائله:

- **قبول الله تعالى لها، وإنباتها نباتًا حسنًا. قال تعالى:** ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران:٣٧].
- **إعاذتها وذريتها من الشيطان الرجيم. قال تعالى:** ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٦].
- **كفالة نبي الله زكريا عليه السلام لها بعد أن تنازع الأحبار العباد في حق رعايتها والقيام بشؤونها. قال تعالى:** ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤]، **فقد وضعتها أمها عند المسجد، فتنازعوا فيها، كل يريد أن يكفلها، فهي بنت (عمران) إمام من كبار أئمتهم، فقال زكريا عليه السلام: أنا أحق بها، وأراد أن يؤثرها لنفسه دونهم من أجل أن زوجته أخت أمها أو خالتها على القولين، فشاحوه في ذلك، وطلبوا أن يقترع معهم، فوقع الاقتراع على زكريا عليه**

(١) انظر: تاريخ ابن الوردي ١/ ٣٠، المختصر في أخبار البشر، عماد الدين أبو الفداء ١/ ١٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب: (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم)، رقم ٤٥٤٦، ٦/ ٣٤.
وانظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ٢٢٨، البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ٥٧.

السلام، فأخذها وكفلها: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧]. وضمها إلى زوجه أم يحيى، واسترضع لها حتى كبرت(١).

- عناية الله بها: فقد كان زكريا يدخل على مريم عليهما السلام فيجد عندها رزقًا لم يأتها به، فيسألها من أين لك هذا؟! فتقول: هو من عند الله، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٧]. وقد عد عدد من العلماء ذلك من باب الكرامات وخوارق العادات(٢).
- اصطفاؤها وتطهيرها: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٤٢].
- إعانتها على طاعة الله، وإحصانها، وتشريفها بذلك: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٣] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١] وقال تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢].
- حملها بعيسى عليه السلام وهو النبي الكريم المتصف بمعالي الصفات. قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥].
- انتساب ولدها إليها: فمريم هي الأنثى الوحيدة في الوجود كله التي اختصها الله من بين النساء، فنسب إليها ولدها وذلك في مواطن كثيرة من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]. ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء: ١٧١].
- جعلها وابنها عليهما السلام آية من آيات الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١]. ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

---

(١) وذهب بعض العلماء إلى كونها لم ترضع ثديا قط.
انظر: تفسير السمعاني ١/ ٣١٤، الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٨٦، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٤٦١.
(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٨٠٥، الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٦٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٢٦.

- **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كمل من الرجال كثيرٌ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[1].**
- **وعن علي رضي الله عنه: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (خير نسائها مريم ابنة عمران وخير نسائها خديجة)[2].**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه)، رقم ٣٤٣٣، ٤/ ١٦٤، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم ٢٤٣١، ١٨٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك)، ٤/ ١٦٤، رقم ٣٤٣٢.

حمل مريم بعيسى عليهما السلام

كان حمل مريم عليها السلام معجزة لم يكتب لها التكرار، فقد أراد الله تعالى لمريم البتول الطاهرة أن تحمل بابنها عيسى عليه السلام، هذا الحمل الذي هو معجزة كبرى وآية عظمى على قدرته جل جلاله، وهو بيان لمكانة هذه الطاهرة القانتة.

بين الله تعالى هذه القصة الغريبة، والمعجزة الباهرة في كتابه تعالى فقال: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٧].

وقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم: ١٦-٢٢].

إذًا فمريم قد حملت، وكان حملها بغير زواج وهي التقية النقية، بل كان من غير أن يمسها بشر أيًا كان، فقد أرسل الله تعالى إليها ملائكة تبشرها بهذه البشارة: الحمل بولد هو كلمة الله تعالى، واسمه: عيسى ابن مريم، وهذا الولد له الكثير من الميزات والخصائص التي انفرد بها عمن سواه، فكانت ردة فعلها وهي الطاهرة النقية البتول العذراء أن تساءلت كيف لها أن تحمل ولم يمسسها بشر، فأخبرت بأن هذه هي إرادة الله تعالى، وأن هذا الأمر هين على الله تعالى، وهو أمر قد قضاه وتكفل به، فما كان للطائعة القانتة إلا الاستسلام.

والملك المرسل إلى مريم هو جبريل -عند أكثر المفسرين- وقد تمثل لها على هيئة بشر سوي، فخافت مريم واستعاذت بالله منه ظانة به ظن سوء، لكنه أخبرها بأنه رسول من الله، كلف ببشارتها بأن الله سيهب لها غلامًا ذكر اسمه وصفته، فوصفه بأجمل الصفات وأثنى عليه عظيم الثناء(١).

أما عن كيفية الحمل فقد نفخ فيها نفخة فحملت بإذن الله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٣٨٧-٣٩١.

[الأنبياء: ٩١].

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

قال الرازي رحمه الله: ذكر الله تعالى أمر النفخ في آيات فقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

أي: في عيسى عليه السلام، كما قال لآدم عليه السلام: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩].

وقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] لأن عيسى عليه السلام كان في بطنها.

واختلفوا في النافخ فقال بعضهم: كان النفخ من الله تعالى لقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

وظاهره يفيد أن النافخ هو الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

ومقتضى التشبيه حصول المشابهة إلا فيما أخرجه الدليل، وفي حق آدم النافخ هو الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] فكذا هاهنا.

وقال آخرون: النافخ هو جبريل عليه السلام؛ لأن الظاهر من قول جبريل عليه السلام: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم: ١٩] أنه أمر أن يكون من قبله حتى يحصل الحمل لمريم عليها السلام، فلا بد من إحالة النفخ إليه[1].

واختلفوا في كيفية النفخ، هل نفخ الله في درعها؟ هل نفث الله في جيبها؟

وقد كفانا الله مؤونة البحث بقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ٢١].

قال الشيخ محمد عبده رحمه الله: «أعلم أن الكافرين بآيات الله ينكرون الحمل بعيسى من غير أب جمودًا على العادات، وذهولًا عن كيفية ابتداء خلق جميع المخلوقات، ولو كان لهم دليل عقلي على استحالة ذلك لكانوا معذورين، ولكن لا دليل لهم إلا أن هذا غير معتاد، وهم في كل يوم يرون من شؤون الكون ما لم يكن معتادًا من قبل، فمنه ما يعرفون به سببًا ويعبرون عنه بالاكتشاف والاختراع، ومنه ما لا يعرفون له سببًا ويعبرون عنه بفلتات الطبيعة.

ونحن نرى علماء الغرب وفلاسفته متفقين على إمكان التولد الذاتي، أي: تولد الحيوان من غير حيوان، أو من الجماد، وهم يبحثون ويحاولون أن يصلوا إلى ذلك

(١) مفاتيح الغيب ٢١/ ٥٢٤.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٦٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٣٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٧٣.

بتجاربهم، وإذا كان تولد الحيوان من الجماد جائزًا فتولد الحيوان من حيوان واحد أولى بالجواز وأقرب إلى الحصول.

نعم إنه خلاف الأصل، وأن كونه جائزا لا يقتضي وقوعه بالفعل، ونحن نستدل على وقوعه بالفعل بخبر الوحي الذي قام الدليل على صدقه.

إذا تمهد هذا فنقول: إن الله المسخر للأرواح المنبثة في الكائنات، وقد أرسل روحًا من عنده إلى مريم، فتمثل لها بشرًا، ونفخ فيها، فأحدثت نفخته التلقيح في رحمها، فحملت بعيسى عليه السلام»[(١)].

وصدق الشيخ رحمه الله، فالاستنساخ المعروف اليوم دليل إلى ما ذهب إليه من إمكان حصول الشيء المخالف للعادة، والبعيد عن التصور.

قال الله جل جلاله: ﴿فَأَجَاءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٣ - ٢٦].

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٥٠].

لما انتهت مدة الحمل أحست مريم عليها السلام ألم الوضع، فاحتضنت جذع النخلة لشدة ما تجد من الألم، وتمنت الموت حينئذ لما توقعته من أذى قومها، (وأنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم -فيما يظنون- عاهرة زانية)[(٢)]، فجاءها صوت من تحتها يطمئنها، ويطلب منها ألا تحزن، وأمرت بهز جذع النخلة والأكل مما فيها من الرطب، والشرب من جدول الماء، وعلمت طريقة التصرف إن رآها بشر أو تعرض لها أحد، فقد أمرت بالصوم عن الكلام.

والذي نادى مريم من تحتها: قيل: هو جبريل عليه السلام. وقيل: بل عيسى عليه السلام أنطقه لها حين وضعته تطييبًا لقلبها، وإزالة للوحشة عنها؛ حتى تشاهد في أول الأمر ما بشرها به جبريل عليه السلام من علو شأن ذلك الولد[(٣)]، وأيًّا كان فالقصد منه طمأنتها وإيناسها.

ومكان الربوة مكان ولادة عيسى عليه السلام قيل: الغوطة بدمشق. وهذا أشهر

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ٢٥٤.

(٢) دعوة عيسى في الكتاب والسنة ص٧.

(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٣/ ٤، مفاتيح الغيب ٢١/ ١٧٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١١٨.

الأقوال؛ لأن صفة الغوطة أنها ذات قرار ومعين على الكمال، وقيل: هي الرملة من فلسطين. وقيل: بأرض مصر. وقيل: الربوة بيت المقدس. ويترجح أن الربوة بيت لحم وهي قرية قريبة من بيت المقدس؛ لأن ولادة عيسى هنالك كانت، وحينئذ كان الإيواء[(١)].

أما الصوم: فالمقصود به الصمت، صيانةً لها عن الكلام مع المتهمين لها؛ ولأن عيسى عليه السلام تكلم عنها[(٢)].

وأما حكمة خلق عيسى عليه السلام بلا أب فقد قال الشنقيطي رحمه الله: «من حكم خلقه عيسى من امرأة بغير زوج؛ ليجعل ذلك آية للناس، أي: علامة دالة على كمال قدرته، وأنه تعالى يخلق ما يشاء كيف يشاء، إن شاء خلقه من أنثى بدون ذكر كما فعل بعيسى، وإن شاء خلقه من ذكر بدون أنثى كما فعل بحواء، وإن شاء خلقه بدون الذكر والأنثى معًا كما فعل بآدم، وإن شاء خلقه من ذكر وأنثى كما فعل بسائر بني آدم، فسبحان الله العظيم القادر على كل شيء»[(٣)].

وقصة الحمل بعيسى عليه السلام وقصة ولادته دليل على بشريته عليه السلام.

مواجهتها لقومها: بعد ذلك كله جاءت مواجهتها لقومها التي أخبر الله سبحانه وتعالى عنها بقوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٢٧ - ٢٨].

جاءت مريم إلى قومها وهي تعلم براءة نفسها ونزاهتها، وهي واثقة من تبرئة الله سبحانه وتعالى لها، قال لها قومها تلك المقولة، وعجبوا من ذلك وهي من أهل بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والزهد والعبادة، فلم تتول هي الإجابة لنفي التهمة عنها، ولكنها أشارت إلى وليدها، وهي تعلم أنه ليس من أهل الكلام حتى يتولى الرد عنها ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم: ٢٩].

ولكن من إيمانها بربها وثقتها به فعلت ذلك، فأنطق الله صاحب المهد ببراءتها ونزاهتها، فنطق عيسى عليه السلام بعد هذه الإشارة: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

ومن الملاحظ أن عيسى عليه السلام لم يرد مباشرة على التهمة الموجهة لأمه، بل إن مضمون كلامه فيه ردٌّ قويٌّ عليهم بما

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٤٥، المختصر في تاريخ البشر، عماد الدين أبو الفداء ١/ ١٩.

(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٣/ ٤،

(٣) أضواء البيان ٣/ ٣٨٩.

زعموا، فإن الله سبحانه وتعالى لا يعطي الكتاب والنبوة لولد من زنى، إضافة إلى ما وهبه الله من الأوصاف الجميلة التي توحي ببركته ونزاهة أمه وطهارتها[1].

حوارات عيسى عليه السلام

أولًا: حوار عيسى عليه السلام مع ربه عز وجل:

عيسى عليه السلام نبي الله تعالى ورسوله، فهو واحد من الأنبياء الذين أرسلهم الله لهداية البشر، ورسول تعتبر تعاليمه ورسالته تكملة وامتدادًا لتعاليم الرسل الذين جاؤوا من قبله، وتهيئة للتعاليم التي سيأتي بها النبي صلى الله عليه وسلم[2].

ودعوة كل الرسل هي الدعوة إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى وحده، قال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝٣٦﴾ [النحل: ٣٦].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوةٌ لعلاتٍ أمهاتهم شتى ودينهم

(١) انظر: دعوة عيسى عليه السلام في الكتاب والسنة ص٨- ٩.

(٢) انظر: عيسى المسيح والتوحيد ص٢٢١.

واحدٌ)[1].

وعن قتادة رحمه الله: أرسلت الرسل بالإخلاص والتوحيد، لا يقبل منهم عمل حتى يقولوه ويقروا به، والشرائع مختلفة، في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي القرآن شريعة، حلال وحرام، وهذا كله في الإخلاص لله والتوحيد له[2].

فالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام هم أصحاب الدعوة إلى التوحيد، وأهم أكثر البشر التزامًا بهذه الدعوة وتحقيقًا لها، ومنهم عيسى ابن مريم عليهما السلام الذي وصفه ربه عز وجل بأنه من الصالحين: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٦].

ومن اتصف بالصلاح كان قدوة حسنة لمتبعيه.

وقد ظهر إجلاله عليه السلام لربه تعالى، وإخلاصه له، وعبوديته، فها هو يدعو قومه إلى التوحيد، ويبين لهم عاقبة الشرك: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف: ٦٣ - ٦٤].

وقد حكى الله تعالى حوارًا يكون بينه عز وجل وبين عيسى عليه السلام، يقر فيه عيسى عليه السلام بعبوديته، وافتقاره إلى الله تعالى، وأنه اجتهد وأخلص في دعوة قومه إلى التوحيد، وإفراد العبادة لله سبحانه، رغم ما حصل من انحراف بعضهم، وتأليههم لعيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١١٦- ١٢٠].

قال جمهور المفسرين: هذا القول يكون

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم)، ٤/ ١٦٧، رقم ٣٤٤٢.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٥.

من الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق؛ لأن عبادة النصارى لعيسى عليه السلام حدثت بعد رفعه، والمراد به توبيخ النصارى، وتبرئة عيسى عليه السلام مما نسبوه إليه، فيقول الله هذا الكلام لعيسى عليه السلام، فيتبرأ عيسى عليه السلام ويقول: سبحانك عن هذا الكلام القبيح، وعما لا يليق بك.

وقد تقدم في هذه السورة ما يثبت براءة عيسى عليه السلام من مثل هذه المقالة، وذلك قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢)﴾ [المائدة: ٧٢][1].

ثانيًا: حوار عيسى عليه السلام مع بني إسرائيل:

بدأ عيسى عليه السلام حواره مع قومه وهو في المهد، فقد رد عن أمه بقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾ [مريم: ٢٩ - ٣٣].

وكان عيسى عليه السلام قد بعث لدعوة بني إسرائيل خاصة.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

فدعاهم عليه السلام إلى التوحيد، وإلى إخلاص العبادة لله تعالى وحده: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)﴾ [آل عمران: ٥١].

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢)﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦)﴾ [مريم: ٣٦].

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤)﴾ [الزخرف: ٦٤].

وكان عيسى عليه السلام قد أرسل مقررًا لشريعة موسى عليه السلام في التوراة، مع ما جاء به في الإنجيل، قال تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠)﴾ [آل عمران: ٥٠].

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٢٥١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٣٢، البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٤/ ٤١٦، التحرير والتنوير ٧/ ١١٢.

قال ابن كثير رحمه الله: «فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح من القولين، ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئًا، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ، وكشف لهم عن الغطاء في ذلك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ [الزخرف: ٦٣] والله أعلم»(1).

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦].

كما تضمنت دعوة عيسى عليه السلام البشارة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

واتخذ عيسى عليه السلام من قومه أنصارًا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: ٥٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤].

فطلب النصرة ليحتمي بها من قومه، ويظهر الدعوة. وهذه سنة الله في أنبيائه وأوليائه، وقد قال لوط عليه السلام: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود: ٨٠].

أي: عشيرة وأصحاب ينصرونني(2).

وكان من أساليبه عليه السلام أن دعاهم بالحكمة، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٤٨].

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠].

وبالموعظة: قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: ١١٢].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «وأما قوله: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإنه يعني: قال عيسى للحواريين القائلين له: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾: راقبوا الله أيها القوم، وخافوا

(1) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٢٥١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٣٢، البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٤/ ٤١٦، التحرير والتنوير ٧/ ١١٢.

(2) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٦٦.

أن ينزل بكم من الله عقوبة على قولكم هذا، فإن الله لا يعجزه شيء أراده، وفي شككم في قدرة الله على إنزال مائدة من السماء كفر به، فاتقوا الله أن ينزل بكم نقمته ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾»[1].

واستعمل معهم الترغيب والترهيب: قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

فكان من قوم عيسى عليه السلام فئة معتدلة، آمنت به واتبعت دعوته، قال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٢ - ٥٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤].

ومنهم فئة مفرطة كفرت ولم تؤمن: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ﴾ [الصف: ١٤].

وتجاوزوا ذلك إلى التآمر عليه -عليه السلام- ومحاولة قتله، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٤-٥٥].

وثالثة أفرطت في حقه عليه السلام، وخالفت دعوته، فقالوا مرة: بأنه هو الله، وقالت أخرى: بأنه ابن الله، وثالثة: بأنه ثالث ثلاثة، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

وقد رد الله تعالى في كتابه كل هذه الادعاءات؛ سعيًا إلى بيان الحقيقة وتصحيحًا للعقيدة، فاستنكر كون المسيح إلهًا، وشنع على من قال بأنه ابن الله، كما رفض عقيدة التثليث[2].

وأخبر سبحانه أن غلو النصارى في المسيح، واعتقادهم أنه إله أو ابن لله كفر بالله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ١٧].

(١) جامع البيان ٧/ ١٣١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٩٧.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠].

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١].

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٣][1][2].

معجزات عيسى عليه السلام

عيسى عليه السلام نبي الله ورسوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقد أيد الله أنبياءه ورسله بالمعجزات الباهرات، والآيات الظاهرات، الدالة على صدقهم فيما جاؤوا به من عند الله عز وجل.

والمعجزة: فعل يظهر على يدي مدعي النبوة، بخلاف العادة، في زمان التكليف، موافقًا لدعواه، وهو يدعو الخلق إلى معارضته، ويتحداهم أن يأتوا بمثله فيعجزوا عنه؛ فيبين به صدق ما يظهر على يده[3].

(١) جامع البيان ٧/ ١٣١.

(٢) والحق الذي جاء في القرآن عن حقيقة المسيح عليه السلام أنه مخلوق كبقية البشر، هو الذي جاء في الإنجيل، فقد جاء فيه: أن المسيح ولد بعد أن لم يكن شيئًا انظر: لوقا ٢: ٤-٧، ومتى ٢: ١-٦، وختن بعد أن كان أغلف انظر: لوقا ٢: ٢١، وكان يصلي ويجتهد في عبادة الله انظر: لوقا ٩: ١٨، ٢٨، ٢٩، ومتى ١٤: ٢٢، وشب واكتهل بعد أن كان صبيًا انظر: لوقا ٢: ٤٢، ٣: ٢٣، وجاع فأكل انظر: متى ٤: ٢، ٢٦: ١٧-٢٥، ومرقس ١١: ١٢، ١٤: ١، ١٤: ١٢-٢٦، لوقا ١٤: ١، يوحنا ١٣: ١-٤، وعطش ثم شرب انظر: يوحنا ٤: ٧-١٠، ومشى ثم تعب فجلس انظر: متى ٥: ١، ١٣: ١-٢، يوحنا ٤: ٧، وركب الجحش في البر والسفينة في البحر انظر: متى ٥: ١، ١٣: ١-٢، يوحنا ٤: ٧، وبصق على الأرض انظر: مرقس ٧: ٣٣، ٨: ٢٣، يوحنا ٩: ٦، وكان يحزن فيبكي انظر: مرقس ١٤: ٣٣- ٣٤، لوقا ١٩: ٤١، وغير ذلك من الصفات التي تدل على أنه مخلوق مثل بقية البشر، لا يختلف عنهم، إلا أن الله اصطفاه بالرسالة كغيره من الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين انظر: المسيح عيسى ابن مريم مصدق لما بين يديه من التوراة/ ١١- ١٤.

(٣) التبصير في الدين، الإسفرائيني ص ١٦٩.

قال العلماء: إن الله تعالى جعل معجزات الأنبياء من جنس أبرع وأشهر ما يكون في زمانهم؛ ليكون أبلغ في التأثير على أقوامهم، وإظهار نبوتهم، فلما كان الغالب في زمان موسى عليه السلام هو السحر؛ جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقتهم، ولـما كان الغالب في أيام عيسى عليه السلام الطب؛ جعل معجزاته من جنس تلك الطريقة، فجاء عليه السلام بغرائب لا تعرف في أصول الطب، وكذلك لـما كان الغالب في أيام الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الفصاحة والبلاغة؛ جعل معجزته ما كان لائقًا بذلك الزمان، وهو فصاحة القرآن[1].

ومن معجزات عيسى عليه السلام:

١. خلق عيسى عليه السلام بغير أب.

وقد مرت بنا قصة حمل مريم بابنها عيسى عليه السلام.

كلام عيسى عليه السلام في المهد.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٦].

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٢٧-٣٣].

إذًا فقد أنطق الله تعالى عيسى عليه السلام في مهده، دلالةً على براءة أمه مما قذفها به المفترون عليها، وحجة له على نبوته عليه السلام . والمهد: الحجر حجر أمه، أو موضع اضطجاع الصبي وقت تربيته[2].

٢. أنه عليه السلام ينفخ في الطين فيكون روحًا بإذن الله.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ

(١) بل إن التأكيد على دعوة التوحيد ثابتة في كتبهم، ففي إنجيل يوحنا: «وهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته» يوحنا ١٧ : ٣.ففي هذا النص التصريح بأن الله هو الإله الحق الذي لا إله غيره، بأن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله، فهو ليس إلهًا، ولا ابن إله، ولا ثالث ثلاثة كما تزعم النصارى.

(٢) انظر: عيسى المسيح والتوحيد، محمد عطا الرحيم ص٢٢١- ٢٣٠.

﴿ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرَۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرَۢا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

فمن معجزات عيسى عليه السلام أنه يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه، فيكون طيرًا حقيقيا ذا حياة، فيطير عيانًا بإذن الله عز وجل.

وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فيه دليلٌ على أنه لولا الإذن من الله عز وجل لم يقدر على ذلك، وأن خلق ذلك كان بفعل الله سبحانه، أجراه على يد عيسى عليه السلام، فكون عيسى عليه السلام خالقًا بيده، ونافخًا بفيه إنما هو ليبين تلبسه بالمعجزة، وأنها جاءت من قبله، وأما الإيجاد من العدم، وخلق الحياة في ذلك الطين فمن الله تعالى وحده لا شريك له[(١)].

٣. إبراء الأكمه والأبرص.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرَۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرَۢا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿وَأُبْرِئُ﴾ معناه: أزيل المرض يقال: برأ المريض وأبرأه غيره، ويقال: بريء المريض أيضًا.

﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾: هو الأعمى الذي لا يبصر شيئًا لا ليلًا ولا نهارًا. وهذا ما رجحه الطبري رحمه الله.

---

(١) والحق الذي جاء في القرآن عن حقيقة المسيح عليه السلام أنه مخلوق كبقية البشر، هو الذي جاء في الإنجيل، فقد جاء فيه: أن المسيح ولد بعد أن لم يكن شيئًا انظر: لوقا ٢: ٤-٧، ومتى ٢: ١-٦، وختن بعد أن كان أغلف انظر: لوقا ٢: ٢١، وكان يصلي ويجتهد في عبادة الله انظر: لوقا ٩: ١٨، ٢٨، ٢٩، ومتى ١٤: ٢٢، وشب واكتهل بعد أن كان صبيًا انظر: لوقا ٢: ٤٢، ٣: ٢٣، وجاع فأكل انظر: متى ٤: ٢، ٢٦: ١٧-٢٥، ومرقس ١١: ١٢، ١٤: ١، ١٤: ١٢-٢٦، لوقا ١٤: ١، يوحنا ١٣: ١-٤، وعطش ثم شرب انظر: يوحنا ٤: ٧-١٠، ومشى ثم تعب فجلس انظر: متى ٥: ١، ١٣: ١-٢، يوحنا ٤: ٧، وركب الجحش في البر والسفينة في البحر انظر: متى ٥: ١، ١٣: ١-٢، يوحنا ٤: ٧، وبصق على الأرض انظر: مرقس ٧: ٣٣، ٨: ٢٣، يوحنا ٩: ٦، وكان يحزن فيبكي انظر: مرقس ١٤: ٣٣-٣٤، لوقا ١٩: ٤١، وغير ذلك من الصفات التي تدل على أنه مخلوق مثل بقية البشر، لا يختلف عنهم، إلا أن الله اصطفاه بالرسالة كغيره من الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين انظر: المسيح عيسى ابن مريم مصدق لما بين يديه من التوراة/ ١١- ١٤.

﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾: البرص، المرض المعروف[(١)].

وذكر هذين الداءين خاصة؛ لأن الاحتجاج على بني إسرائيل في معنى النبوة لا يقوم إلا بالإبراء من العلل التي لا يبرىء منها طبيب بوجه، إلا من أعطاه الله مثل الذي أعطى عيسى عليه السلام.

وقد روي أنه ربما كان يجتمع عليه ألوف من المرضى، من أطاق منهم أتاه، ومن لم يطق أتاه عيسى عليه السلام، وما يداوي إلا بالدعاء.

وكان الغالب على زمان عيسى عليه السلام الطب، فأراهم الله المعجزة في جنس علمهم[(٢)].

٤. إحياء الموتى.

قال تعالى: ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: ٤٩].

﴿وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ﴾ [المائدة: ١١٠].

كرر بإذن الله دفعًا لتوهم الألوهية، فإن الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية[(٣)].

٥. الإنباء بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم.

قال تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٤٩﴾ [آل عمران: ٤٩]

يعني: وأخبركم بما تأكلون، مما لم أعاينه وأشاهده معكم في وقت أكلكم، وما ترفعونه فتخبأونه ولا تأكلونه.

وهذا كله من الإنباء بالغيب الذي لا سبيل لأحد من البشر عليه إلا بإذن الله[(٤)].

٦. نزول المائدة.

قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١١٢ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝١١٣ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١٤ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١١٥﴾ [المائدة: ١١٢-١١٥].

(١) التبصير في الدين، الإسفرائيني ص ١٦٩.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ١٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٤١٨، ١٨/ ١٨٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٣٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٢٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٧، أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٥٣٥.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٣٩، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٢٨، ٢٢٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٤، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٩٢، محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٣٢٠، تفسير المراغي ٣/ ١٥٧، ١٥٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٥١.

هذه قصة المائدة، وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى عليه السلام، لما أجاب دعاءه بنزولها، بعد طلب من قومه، فأنزلها الله آية ودلالة ومعجزة باهرة وحجة قاطعة على قدرته تعالى، وعلى نبوته عليه السلام[(١)].

رفع عيسى عليه السلام ونـزوله

أولًا: رفع عيسى عليه السلام إلى السماء:

لما تآمر أعداء الله من اليهود على قتل عيسى عليه السلام والخلاص منه ومن دعوته، نجاه الله سبحانه وتعالى منهم، ورد كيدهم في نحورهم، فرفعه إليه.

يدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٥].

قال ابن جرير رحمه الله: «يعني بذلك جل ثناؤه: ومكر الله بالقوم الذين حاولوا قتل عيسى عليه السلام مع كفرهم بالله وتكذيبهم عيسى - عليه السلام - فيما أتاهم به من عند ربهم، إذ قال الله جل ثناؤه: ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾. فتوفاه ورفعه إليه.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى الوفاة التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآية:

فقال بعضهم: هي وفاة نوم، وكان معنى الكلام على مذهبهم إني منيمك ورافعك في نومك.

وقال آخرون: معنى ذلك إني قابضك من الأرض فرافعك إلي، قالوا: ومعنى

(١) البرص: داء معروف، وهو بياض يقع في الجسد، برِص بَرَصًا، والأنثى برصاء. انظر: لسان العرب ٧/ ٥.

الوفاة القبض، لما يقال: توفيت من فلان ما لي عليه، بمعنى: قبضته واستوفيته، قالوا: فمعنى قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ أي: قابضك من الأرض حيًا إلى جواري، وآخذك إلى ما عندي بغير موت، ورافعك من بين المشركين وأهل الكفر بك

وقال آخرون: معنى ذلك إني متوفيك وفاة موت.

وقال آخرون: معنى ذلك إذ قال الله يا عيسى إني رافعك إليَّ، ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد إنزالي إياك إلى الدنيا. وقال: هذا من المقدم الذي معناه التأخير، والمؤخر الذي معناه التقديم.

قال أبو جعفر: «وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا قول من قال: معنى ذلك إني قابضك من الأرض ورافعك إليَّ؛ لتواتر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال ثم يمكث في الأرض)**[1] مدة ذكرها اختلفت الرواية في مبلغها، ثم يموت فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه»[2].

وأكد الله تعالى أن عيسى عليه السلام لم يقتل، ولم يصلب، بل شبه على اليهود الذين أرادوا ذلك، فظنوا أنهم صلبوه.

قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء:١٥٧].

أما قضية الرفع فبينا أقوال المفسرين فيها، وعلماء أهل السنة على أنه عليه السلام رفع ببدنه وروحه إلى السماء[3]، أما كيف شبه لهم؟ فهناك تفسيرات عديدة لمسألة التشبيه على الناس في مسألة الصلب، و نلخص التفسيرات التي لا تعارض القرآن الكريم بما يلي:

١. لم يصلب اليهود أحدًا، لكنهم ادعوا ذلك ليشبهوا على من قلدهم و يكذبوا عليهم بعد أن نجى الله المسيح عليه السلام من مكرهم[4].
٢. صلب اليهود واحدًا من الناس و ادعوا أنه هو المسيح ابن مريم عليه السلام؛ ليشبهوا الأمر على الناس بعد أن نجى الله نبيه عليه السلام، وهذا التفسير هو ما ذهب إليه ابن حزم رحمه الله

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٤٣١، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٣٩- ٤٤٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٢٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٨، البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٣/ ١٦٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٤، تفسير المراغي ٣/ ١٥٨.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٤٣٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٥٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٢٥.

في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» حيث يقول رحمه الله: «إنما عنى بذلك تعالى أن أولئك الفساق الذين دبروا هذا الباطل وتواطؤوا عليه أنهم كذبة، وهم شبهوا على من قلدهم وكذبوا عليهم، فأخبروهم أنهم صلبوه وقتلوه، وهم كاذبون في ذلك، عالمون أنهم كذبة»(1). و يضيف ابن حزم في شرح جملة (شبه لهم) قائلًا: «إنما هو إخبار عن الذين يقولون بتقليد أسلافهم من النصارى واليهود أنه عليه السلام قتل و صلب، فهؤلاء شبه لهم القول، أي: أدخلوا في شبهة منه. وكان المشبهون لهم شيوخ السوء في ذلك الوقت، وشُرَطهم المدعون لهم أنهم قتلوه وصلبوه، وهم يعلمون أنه لم يكن ذلك. وإنما أخذوا من أمكنهم فقتلوه وصلبوه في استتار ومنع من حضور الناس. ثم أنزلوه ودفنوه تمويهًا على العامة الذين شبه لهم الخبر»(2).

٣. صلب اليهود أحد تلاميذ المسيح عليه السلام الذين افتدوا نبيهم بأنفسهم، فادعى التلميذ بأنه هو المسيح عليه السلام عندما طلبه الجنود. فشبه الأمر لليهود بأن ظنوا أنهم صلبوا المسيح عليه السلام وقتلوه.

٤. صلب اليهود أحد الذين وشوا بالمسيح عليه السلام بعد أن جعل اليهود يرونه على صورة المسيح عليه السلام . فظنه اليهود بأنه هو المسيح عليه السلام فصلبوه وقتلوه. فشبه الأمر لليهود بأن ظنوا أنهم صلبوا المسيح عليه السلام وقتلوه(3).

والناظر إلى التفسيرات الأربعة أعلاه يرى عدم تعارضها مع الآية: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

لكن النظريتين الأخيرتين تعتمدان في الأغلب على أناجيل النصارى الذين لا نصدقهم في ادعاءاتهم ولا نكذبهم؛ حيث لم يخالفوا في قصتهم عن شبيه المسيح نصًا من نصوص الشريعة الإسلامية من قرآن أو حديث(4).

(1) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تزال طائفةٌ من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعضٍ أمراء، تكرمة الله هذه الأمة». أخرجه مسلمٌ في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم، رقم ١٥٦، ١/ ١٣٧.

(2) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٨٩- ٢٩١.

(3) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٦٤- ٦٥، مجموع فتاوي ابن تيمية ٤/ ٣٢٢.

(4) ويقوي هذا الاحتمال ما نقله إنجيل يوحنا بأن يسوع تحدى اليهود بأنهم سيطلبونه ولا يجدونه: «فقال لهم يسوع: أنا معكم زمانًا

ثانيًا: نزوله عليه السلام آخر الزمان:

وردت الإشارة إلى هذا النزول في القرآن الكريم حسب أقوال المفسرين، ففي قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [الزخرف: ٦١].

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي وقتادة: إنه خروج عيسى عليه السلام، وذلك من أعلام الساعة؛ لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩].

قال ابن جرير رحمه الله: «يعني قبل موت عيسى -عليه السلام- يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفية، دين إبراهيم صلى الله عليه وسلم»(٢).

وأما في السنة فقد تواترت الأحاديث على نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان(٣)، وفي الصحيحين:

عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحدٌ)(٤).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

يسيرًا بعد، ثم أمضي إلى الذي أرسلني. ستطلبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا» يوحنا ٧: ٣٤-٣٥.

(١) الفصل ١/ ٧٦.

(٢) الفصل ١/ ٧٧. وذهب قريبًا من هذا الاستنتاج النصراني «ملمن» في كتابه «تاريخ الديانة النصرانية» حيث يقول: «إن تنفيذ الحكم كان وقت الغلس، وإسدال ثوب الظلام، فيستنتج من ذلك إمكان استبدال المسيح بأحد المجرمين الذين كانوا في سجون القدس منتظرين تنفيذ حكم القتل عليهم كما اعتقد بعض الطوائف، وصدقهم القرآن».

(٣) ويؤيد هذه القصة ما ورد في إنجيل برنابا، فقد جاء فيه أن الله ألقى شبه عيسى عليه السلام على يهوذا، وأنه رفع إلى السماء. و قد مهد لهذا بإعلان أن المسيح عليه السلام سوف يحيا إلى نحو منتهى العالم، وأن جبريل قد أخبره بخيانة يهوذا، ثم أعلن يسوع أن الله سيصعده من الأرض، وسيغير منظر الخائن يهوذا حتى يظنه كل أحد أنه يسوع برنابا ١١٢: ١٥. ثم يؤكد إنجيل برنابا القول بأن المسيح عليه السلام لم يوضع على الصليب أبدًا، بل ألقى الله شبهه على يهوذا الاسخريوطي فصلب بديلًا عنه. و مما قاله برنابا: «الحق أقول إن صوت يهوذا وشخصه ووجهه بلغت من الشبه بيسوع أن اعتقد تلاميذه و المؤمنون به كافة أنه يسوع» إنجيل برنابا: تحقيق سيف الله أحمد فاضل/ ٢٩٢.

(٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٨٠٥، الكشاف ١/ ٣٦٨، المحرر الوجيز ١/ ٤٢٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٧.

(لا تزال طائفةٌ من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعضٍ أمراء، تكرمة الله هذه الأمة)[(١)].

وأما الحكمة من نزوله، فللعلماء في ذلك أقوال، منها:

- الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه، فبين تعالى كذبهم، وأنه الذي يقتلهم.
- نزوله لدنو أجله ليدفن في الأرض؛ إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غيرها.
- أنه دعا الله لما رأى صفة محمد صلى الله عليه وسلم وأمته أن يجعله منهم، فاستجاب الله دعاءه وأبقاه حتى ينزل في آخر الزمان مجددًا لأمر الإسلام، فيوافق خروج الدجال فيقتله.
- تكذيبه لكل من ادعى إلهيته أو بنوته لله تعالى. قال ابن حجر رحمه الله: «والأول أوجه»[(٢)].

وأما مدة بقائه في الأرض فقد اختلفت في ذلك الروايات بين سبع سنين، أو تسع عشرة، أو أربعين سنة[(٣)].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٧٠، تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٣٣.

(٢) جامع البيان ٦/ ١٨.

(٣) انظر أقوال أهل العلم في تواتر الأحاديث في هذه المسألة: التصريح بما تواتر في نزول المسيح، الكشميري، ص ٥٦.

موضوعات ذات صلة:

الإنجيل، أهل الكتاب، مريم، موسى، النصارى